ماذا جرى في موسكو؟ «٢»

روسيا.. بعد سقوط الأيدلوجيا!

هاشم عبده هاشم

**** الفارق بين زيارتي الأولى لموسكو عام ١٩٩٠م.. وبين زيارتي لها في الأسبوع الماضي.. لايكاد يصدق.**

**** ففي العام ١٩٩٠م.. كان «الرئيس السوفيتي جورباتشوف» يقف على سدة الحكم لدولة بدت وكأنها تنتظر المجهول.. لاسيما بعد ان بدأ يترجم آراءه وافكاره التي ضمنها «البيروسترويكا» الشهيرة الى ثورة حقيقية انتهت ببلاده الى ما نشهده فيها الأن.**

**** في ذلك التاريخ كان الاتحاد السوفيتي يعيش في قمة صراع مع الولايات المتحدة الأمريكية وإن بدأت اشباح الحرب الباردة تتلاشى.. وحالة الانكماش السوفيتي بعد سياسة التمدد.. والانتشار ولاسيما في دول العالم الثالث تتزايد.. وبدأت الدول الدائرة في فلك الدولة العظمى الثانية تتلمس طريق المستقبل بخطوات مرتجفة لاسيما في ظل تراخي الكرملين عن المضي في اداء التزاماته.. وبرامج دعمه المفتوح لحركات التحرر في العالم.**

**** في هذا الوقت بالذات شعرت المملكة العربية السعودية ان الوقت ملائم لفتح حوار جاد وجديد مع موسكو.. بهدف استئناف العلاقات الثنائية، على أسس جديدة ومختلفة**

وقدر لي مع زملائي تركي السديري رئيس تحرير جريدة «الرياض» وعثمان العمير رئيس تحرير «الشرق الاوسط» آنذاك وخالد المعينا رئيس تحرير «عرب نيوز» ان نرافق الأمير سعود الفيصل وزير الخارجية في تلك الزيارة الهامة.

** ويومها سألنا الأمير بذكائه المفرط واسلوبه الساخر: كيف ترون (ياسادة الكلمة) الوضع في الاتحاد السوفيتي..؟

** التفت كل منا للآخر.. وسألنا الأمير بعتب شديد ونحن نقول بصوت واحد.. لقد جئنا الى مجلسك الآن لنسمع الاجابة منك.. فأنت الذي تملك المعلومة وأنت الذي تستطيع أن تبصرنا بحقيقة ما يجري؟

** اكتفى الأمير بالتعبير عن الواقع الذي يعيشه الاتحاد السوفيتي بتقطيب الحاجبين.. وبما يُشير الى ان الأمور لا تسر.. وان المستقبل لايبدو مطمئنا بالمرة.

** عندها اردنا أن نسأله: ولماذا جئنا اليهم في هذا الوقت بالذات؟! كيف نأتي الى دولة تبدو وكأن كل شيء فيها معرض للتداعي؟!.

** لكنه ادرك السؤال.. فقال: يبدو لي من ملامحكم انكم اكثر تشاؤما مني.

** وبنفس الحركة الموحدة.. هززنا رؤوسنا بالموافقة.

** ما اتذكره الآن من كلام الأمير لنا هو: «ان تحركنا في ذلك الوقت كان بهدفين الاول: هو الاطلاع على الوضع عن كثب.. والتعرف على مدى الحاجة لاستئناف علاقاتنا معهم ولاسيما بعد الحرب في افغانستان وخروجهم منها في واحدة من مراحل التراجع للمد السوفيتي خارج اراضيه الممتدة في كل اتجاه.

** وبانتهاء الزيارة.. كانت المملكة قد توصلت الى ما جاء الأمير سعود لمعرفته بعيدا عن المعلومات والتقارير والدراسات المعدة بالطرق التقليدية المألوفة.

** ويتمثل ذلك في:

اولا: أن الاتحاد السوفيتي لم يعد يشكل لاخطرا عسكريا.. ولا أيديولوجيا ولا امنيا على أحد.. وان مشاكله الكثيرة تشغله عن المضي في سياساته التوسعية المعروفة وبالتالي فان الاقتراب منه والتعامل معه سيكون مفيدا بكل المقاييس بعد ان انتفى الخطر والحذر على حد سواء.

ثانيا: ان معالجة آثار المواجهة مع السوفييت في افغانستان في هذا الوقت بالذات افضل منها في اي وقت مضى، وان التعبير عن الرغبة في استئناف العلاقات سوف تؤكد حسن نوايانا وليس العكس كما كان السوفييت يظنون.. لاسيما في ظل تواصل الجهود السعودية آنذاك لاصلاح ذات البين بين زعماء الطوائف الافغانية باستضافة اجتماعاتهم بين مكة المكرمة والرياض وجدة بهدف توظيف جهودهم في خدمة بلادهم وتأمين سلامة شعبهم.. واعادة بناء دولتهم على الوجه الاكمل بعيدا عن التنافر والتناحر والاحتراب المشتعلة بينهم ولاسيما بعد خروج الاتحاد السوفيتي من بلادهم.

ثالثا: ان التقارب مع السوفييت في ذلك الوقت قد يساعد على احتواء أو الحد من سياساتهم الرامية الى التمدد في المياه الباردة وباتجاه الخليج لاهداف استراتيجية وعسكرية وبترولية مشتركة.. مستغلا الحالة الناشئة في ايران بعد مجيء الخميني الى سدة الحكم.. وبالتالي تجنيب المنطقة آثار الحرب الباردة والصراع والمواجهة مع الولايات المتحدة وما قد يترتب على ذلك من اضرار تلحق بدول المنطقة وشعوبها.

** ويمكن القول ان هذه الزيارة المحورية قد حققت اهدافا بالغة الاهمية.. ودلت على ان التحرك السعودي في ذلك الوقت لم يكن ناجحا فحسب بل كان استراتيجيا وبكل المقاييس..

** وفي٢٨ صفر ١٤١١هـ الموافق ١٧ سبتمبر ١٩٩٠م صدر البيان التالي على استئناف العلاقات بين البلدين.

«إن اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية والمملكة العربية السعودية، رغبة منهما في تطوير العلاقات الودية بينهما لصالح شعبي الدولتين قد اتخذا بتاريخ ١٧ سبتمبر ١٩٩٠ميلادية الموافق ٢٨صفر١٤١١هجرية، قراراً باستئناف تبادل التمثيل الدبلوماسي على مستوى السفراء، واتفق الطرفان على أن علاقتهما الثنائية ستبنى وفقاً لميثاق الأمم المتحدة على أساس مبادئ التعايش السلمي والمساواة والاحترام المتبادل للسيادة وسلامة الاراضي وعدم التدخل في الشئون الداخلية لبعضهما البعض، إن الاتحاد السوفييتي والمملكة العربية السعودية سيبذلان جهوداً نشطة من أجل تسوية النزاعات الاقليمية وتطوير التعاون الدولي وتعزيز السلام والأمن في العالم».

** في تلك الزيارة قدر لنا كإعلاميين ان نجتمع بمستشار الرئيس الروسي آنذاك «بريماكوف» في مكتبه المتواضع.. وان نسمع منه كلاما كثيرا.. كثيرا تناول كل شيء.. ولكنه لم يعبر عن أي مخاوف لما قد يؤول اليه وضع بلاده.. ربما لانه كاحد اصحاب القرار – عن بعد – لم يكن يتصور ما قد يحدث وبذلك الحجم الكبير.. وربما لانه كان بعيدا عن مصادر المعلومات الا من خلفيته الصحفية والاعلامية منذ كان مراسلا لصحيفة «برافدا» السوفيتية في القاهرة وحتى اعتماده كأحد المستشارين عن بعد للرئيس السوفيتي آنذاك.

** لقد قال لنا: انه يعرف المملكة ويعرف انماط التفكير السائدة فيها.. لكنه يعتقد ان مشاركتنا في مقاومة الوجود السوفيتي في افغانستان قد تركت خلفية غير جيدة لدى الشعب الروسي وقيادته وانه لايتوقع ان تسفر الزيارة عن نتائج كبيرة تذكر وان كان يتمنى لهذه الصفحة ان تطوى وان تتأسس من جديد على نحو مختلف وان تبدأ مرحلة بناء الثقة.

** وعندما خرجنا من مكتبه.. كان الشعور الذي يساورنا هو ان الرجل بعيد عن مصادر اتخاذ القرار.. وانه مازال مطمئنا الى ان الكيان السوفيتي اصلب من العواصف المحيطة به.. ولذلك فانه مازال يتحدث بلغة القياصرة.. وبمنطق القوة والتاريخ.. بعيدا عن الأمر الواقع.. لكنه كان بليغا ومقتدرا على طرح افكاره واغرائك بالتجاوب معها بقدرة فائقة مارسها مع الرئيس العراقي السابق صدام حسين ونجح فيها.

** ويوم حفل غداء الرئيس بوتن لسمو الأمير عبدالله.. رأيته عن بعد.. وتفرست في وجهه.. ووددت أن اقترب منه واسأله: كيف يرى مستقبل روسيا في ضوء الاحداث والتطورات التي شهدتها منذ البروسترويكا وحتى الان مرورا بسقوط حائط برلين وتفكك الاتحاد السوفيتي واستقلال الدول الثلاث عشرة عنه وذلك بهدف مقارنة اقواله الان بتلك التصريحات العائمة القاتمة التي سمعناها في اللقاء الاول.

** لكن الزحام الشديد حال بيني وبينه وان كنت رأيت فيه رجلا اخطبوطيا قويا استطاع بدهائه ان يصل الى المراكز العليا في السلطة في عهد الرئيس الروسي السابق يالتسين وان جرفته الاحداث مع من جرفت مؤخرا. وان لم تقصه تماما عن الواجهة.. بدليل وجوده معنا الان هنا في اروقة الكرملين.

** تذكرت خلفية هذا اللقاء.. كما استحضرت معه لقائي وزملاء المهنة بوزير الخارجية السوفيتي آنذاك (شيفرنادزه) والذي اصبح الان رئيسا لاحدى الدول الثلاث عشرة المستقلة بعد تفكك الاتحاد السوفيتي «جورجيا».

** يومها قال لنا الرجل: «إن لقاءه بالأمير سعود الفيصل كان مهما جدا.. وان البلدين يوشكان على فتح صفحة جديدة في الوقت المناسب (ولم يحدد).

** وعندما سألناه على احتمالات التغيير المرتقبة في بلاده في ضوء بروستريكا جورباتشوف.. قطب الرجل حاجبيه وقال: الرئيس يملك رؤية اصلاحية شاملة.. والاتحاد السوفيتي دولة عظمى.. ونظامها السياسي معقد.. ولذلك فان التحولات الكبيرة قد تكون ممكنه في المدى القريب.

** استدرك بعدها قائلا: «ان وجودكم معنا اليوم هنا يعني ان المملكة مطمئنة الى استتباب الوضع لدينا وانها راغبة في التحدث مع القوة الثانية في العالم من موقع تحتمه سياستكم الواقعية وتمليه الظروف والمتغيرات الدولية وتوجيه المصلحة المشتركة للدولتين».

** يومها قلت لاخي وزميلي تركي السديري: إن الوزير السوفيتي يبدو وكأنه يقرأ الواقع من خلال الفكرة الشيوعية التي تؤمن بان الصراع بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة سينتهي لصالح الأيديولوجيا وليس لمصلحة الرأسمالية وبالتالي فأنه يبدو مطمئنا الى انهم ليسوا بحاجة الى دولة مؤسسات في وقت قريب لانقاذ الوضع؟!.

** هزّ تركي رأسه يومها وقال: لكننا لايجب ان ننكر ان الرجل سياسي محنك وانه حاول ان يمرر من خلالنا رسالة مفادها ان بلاده لاتبدو مستعدة بدرجة كافية لنسيان الماضي بهدف معرفة رد فعلنا.

** والحقيقة ان الصمت على حديث الوزير كان هو الرد الذي قابله بابتسامة باردة.. وبنظرات قوية وثاقبة.. وبوداع بدا وديا بهدف تغيير الانطباع الذي تركه حديثنا غير المتفاعل معه لاسيما في ظل تلمسنا لسياسات بلاده الجديدة وتعاملها مع القوميات الاخرى داخل المجتمع السوفيتي.. وامكانية استمرار النسيج الاجتماعي والسكاني الروسي في ظل احداث التغيير التي اعقبت طرح برامج البروسترويكا للتنفيذ.

** تذكرت ذلك.. وتذكرت معه لقاءنا العابر بالرئيس جورباتشوف لبضع دقائق عقب اجتماعه بالأمير سعود الفيصل ويومها اكتفى الرجل باستقبالنا والترحيب بنا بنظرة متفائلة جدا.. وان بدت لنا غامضة وتنطوي على الكثير من الاصرار على تبني سياسات التغيير.

** لكن احدا في الاتحاد السوفيتي بمن فيهم الرئيس جورباتشوف لم يكن يتوقع ان تنتهي الامور الى ما انتهت اليه الان وبالسرعة التي تمت وان يصبح مشروعه لبناء كيان جديد يعالج حالة التهدم الداخلي.. ويخلصه من ربقة الايديولوجيا وينقله الى فكر السوق الحر.. ويطلق حقوق الفرد على نحو غير مسبوق.. كما نراه اليوم ونحن نتجول في ارجاء موسكو.. التي عدنا اليها بعد (١٤) سنه كاملة ان يصبح مشروعه ممكن التحقيق بدقة.

** لقد قال لي الرفيق (رفيق الدرب) تركي السديري ونحن نسير في احد شوارع موسكو.. ونجول باعيننا في اوجه الناس.. ونقرأ اسماء الشركات العالمية (الايطالية/الامريكية/الالمانية/ الفرنسية/ البريطانية) على واجهات المحلات التجارية ونسمع الموسيقى الغربية تصك الاذان.. ونتفرج على الاف السيارات الالمانية واليابانية والامريكية تملأ شوارع المدينة. لقد قال لي: هل تصدق باننا في نفس المدينة التي زرناها قبل (١٤) سنة؟!

** قلت له: كيف تريدني أن أصدق كل هذا.. ونحن لانستطيع أن نميز الآن بين سحن الناس.. وواجهات الشوارع.. والمراكز التجارية.. هنا.. أو من وما نراه في أي عاصمة أوروبية أو أمريكية..؟!

***

** وعندما حضرنا مأدبة الغداء التكريمية التي اقامها الرئيس بوتن لسمو ولي العهد الأمير عبدالله.. وسمعنا خطابه وتأملنا قسمات وجهه.. وحدقنا في وجوه الحضور.. ونظرنا في ارجاء الصالات الضخمة والفخمة بقصر الكرملين لم نستطع تصديق عيوننا أو انفسنا. وتساءلنا: أين هي الأيديولوجيا التي جاء بها لينين وطبقها ستالين.. ومارسها كل الرؤساء والمفكرون السوفيت منذ قيام الثورة البلشفية عام ١٩١٩م وحتى انهيار النظرية الشيوعية مؤخرا؟!.

** لقد كانت الاحاديث السائدة بين كل المدعوون هي عن اقتصاد السوق.. وظهور طبقة كاسحة من الاغنياء استطاعت ان تقلب البلاد رأسا على عقب.. وان تتسابق لاحضار الشركات العالمية والحصول على وكالاتها.. والتأسيس لفكر السوق.. جنبا الى جنب ظهور طبقة عريضة من المثقفين يخططون لانتاج جيل يؤمن بدور الفرد واستحقاقاته.. ويتحدث عن توسيع دائرة المؤسساتية والغاء الانظمة التي كانت سائدة.. واطلاق الحريات العامة الى درجة العبث اللامحدود.

** لقد هالنا ان البلد المغلق اصبح مفتوحا وبصورة لايصدقها عقل... وان كانت حالة الحذر والحساسية الأمنية مازالت واضحة في كل مكان يذهب اليه الانسان.. ربما لان بعض الظروف الأمنية التي شهدتها البلاد قد فرضت حالة الاستنفار هذه.. وربما لان المجتمع الذي عاش قرونا طويلة محكوما بالفكر البوليسي مازال غير مستعد لتقبل روح التغيير الجديدة.. وربما لان الممارسات الخاطئة إثر الانتقال من مرحلة ألى مرحلة جديدة قد فرضت حالة الخوف والتشدد الأمني المبالغ فيه.. وربما لان السلطة مدركة لابعاد الخطر المترتب على مثل هذه التحولات التي تشهدها البلاد.

** لكن الحياة غير الحياة..

** والسياحة الى بلد الثلج.. والصقيع.. تبدو وكأنها تجسد اكتشاف العالم لمجهول جديد وجدوا فيه كل ما هو جميل.. وواعد.. وليس فقط لقضاء اوقات ممتعة فيه.. لاستثمارها كأرضية خصبة وقابلة لكل شيء.. للافكار.. وللاتجار.. وللاستثمار.. ولغيره.

***

** لقد عشنا اياما ثلاثة في بلد آخر.. غير الذي جئنا اليه قبل اربعة عشر عاما وعشنا فيه اياما مماثلة تمنينا آنذاك لو انها اختصرت الى بضع ساعات.

** لقد كان كل شيء خانقا.. ومخيفا.. وكئيباً.

** اما اليوم فان من يزور روسيا لايمكن ان يصدق ان كل ذلك قد حدث فجأة.. وان المجتمع الروسي قد تغير من الداخل.. وليس من الخارج فقط.

** تغيرت قناعاته.. افكاره.. اولوياته.. نظرته الى الحياة.. والى العمل.. والى المستقبل.. واصبح شعبا يبحث.. وينقب.. ويهتم بالحوار مع الغير بعد ان كان يخافه.. ويتعاطى معه بعد ان كان يتجنبه.. بعد ان كان ينفر منه.

** لماذا؟

** لان روسيا الجديدة.. اصبحت دولة بلا مطامع.. وان كبرت طموحاتها.. وإن عظمت هواجسها باتجاه التفكير في المستقبل.

** وفي هذا الصدد قال لي مستشرق روسي كبير «ان روسيا التي ترونها اصبحت اكثر ليبرالية حتى أكثر من بعض الدول الغربية».

** قلت له: لكن هذا التحول الثقافي.. المادي.. السريع يؤذن بتلاشي الهوية الروسية.. ويهدد باستنساخ جنين غير قادر على الحياة طويلا.

** هز رأسه.. وكانه يسمع صوتا مختلفا غير الصوت المسموع داخل موسكو.. لكنه اضاف قائلا: ان كل الدراسات واستطلاعات الرأي تؤكد أمرين هامين هما:

أولا: ان الشعب الروسي.. اكثر تماسكا من أي وقت مضى.. لانه أكثر توحدا من الناحية العرقية والثقافية بعد عملية الفرز الأخيرة وبالتالي فانه لايبدو مستعدا للتفريط في واقعه الجديد.

ثانيا: ان الايديولوجية الشيوعية لم تكن الاصل في تكوين هذا المجتمع.. وانما الاصل هو تشكل أمة ذات تاريخ وحضارة عريقة.. وان الشيوعية لم تكن أكثر من نظرية اخذت مداها.. ثم تلاشت عند أول اختبار حقيقي اصطدمت فيه بقوى ضاربة في هذا العالم.. لتثمر في النهاية عن العودة الى الاصل.. وليس شرطا ان تكون الراسمالية الجديدة هي المنبع وانما هي احد ثوابت هذه البلاد حتى في الفترة السابقة للثورة البلشفية.

** تأملت هذا الكلام.. ونظرت الى الرجل.. وسألته ان كان قد فكر في هذا الأمر قبل احداث التغيير وسقوط النظرية الشيوعية بانهيار الاتحاد السوفيتي.

** قال لي: اصدقك القول اننا كنا نشعر بذلك ولكننا كنا نعيش حالة اغماء طويلة لم نفق منها الا بعد ان سقط الفأس على الرأس كما يقول العرب.

** ضحكنا ونحن نرشف فنجال القهوة الامريكية بفندق ماريوت وسألته ان كانت قراءته لمستقبل روسيا توحي بالطمأنينة او ان مخاوفهم مازالت كبيرة من امكانية تعرض الواقع الجديد لاهتزازات اخرى؟

** قال الرجل بسرعة: لا أحد يستطيع الجزم بما ستكون عليه الاوضاع في المستقبل القريب.. لكن المستقبل المنظور يشير الى ان رجال الدولة وعلى رأسهم الرئيس بوتن يبذلون جهودا خارقة للتوفيق بين حركة التغيير وبين تحقيق الحد المعقول من الاستقرار في البلاد.. ولذلك فان بعض الاعمال التخريبية تبدو مزعجة لنا.. ومقلقة للدولة.. وغير مريحة لكل من يدرس تاريخ هذه البلاد ويقرأ صفحة مستقبلها.

** قلت له: هل افهم من ذلك ان برنامج بروستريكا جورباتشوف لم ينته بعد.. وان المستقبل الغامض قد يحمل معه مفاجآت اخرى.

** قال بحزم: لا اعتقد ان المسألة بمثل هذه الحدة لكن الاستقرار الكامل يبدو انه سيتحقق بعد عناء.. وبمزيد من الاندفاع نحو الخارج والخروج من سياج العزلة التي وضعنا فيها وضعنا الجديد.. وهو ما يفسر هذه التحركات الواسعة للرئيس ورجال حكومته في كل اتجاه.. وهو ما يفسر حركة المجتمع الجديد نحو التوجه الى حياة جديدة تسرع الخطى نحو المؤسساتيه المنضبطة.

** قلت له: وماذا تقصد بالمؤسساتية المنضبطة؟

** قال: ان الخشية كبيرة في ان يستغل الاتجاه القوي والمتسارع نحو المؤسساتية الى نشوء طبقة من المستغلين والطفيليين لاقامة نظام اكثر استبدادية وتحكما في مصير الشارع الروسي مستغلا حالة الجوع لدى الانسان الى الحرية والديمقراطية والانتاج وتأكيد الفرد لنفسه وحصوله على كامل حقوقه.

** وكيف تستطيعون ان تتجاوزوا هذه الحالة..؟

** لا ادري.. قالها.. وتنهد بعمق وكأنه لايبدو مطمئنا الى بعض مظاهر التغيير.

** اضاف: ان ظهور طبقة جديدة من المستفيدين.. والمستغلين.. اصبح يشكل اكبر واقوى هاجس لكل روسي.. بعد ان كان يحيا بنظرية المجتمع غير الطبقي وان عاش حياته عبدا للطبقية المتسترة.

***

** هذه المخاوف وتلك التوجسات.. تمثل الصورة الاخرى لاوضاع الشارع الروسي الجديد.. وهما صورتان طبيعيتان في ضوء التحولات التاريخية التي شهدتها البلاد.. لكن احدا لايبدو قادرا على التنبؤ بما ستكون عليه حالة البلاد في ظل حالة التفاعل والتصارع بين قوى التغيير البارزة على السطح والمتسترة وراء ركام المصالح والاستحقاقات.

** وفي خضم هذه التفاعلات يبدو الرئيس بوتن واثقا من أن بلاده تسير بخطى ثابته على ارض صلبة.. وان بدت تلك الخطوات وكأنها تمشي فوق الماء في بعض الأحيان.

** فهو بخلفيته الأمنية.. وتجربته السياسية.. وقدرته على التعامل مع المتغيرات الجديدة.. يبدو كأي هاو محترف، يجيد التعامل مع كل الانواء والطقوس.. ولا استبعد انه يعمل اكثر من خمسة عشرة ساعة وانه يفكر بأكثر من عقل.. وان عينيه الصقريتين تريان مالايراه الاخرون.. وانه قادر على ان يركب العواصف واحدة بعد الاخرى.. ويفوز بالانتخابات القادمة ويواصل مسيرته في تحقيق الدولة الحلم.. ونقل بلاده من مركز الدولة العظمى والافقر الى الدولة الأقوى والاقدر على الحياة والتأثير.

جورباتشوف

شيفارندزه

بريماكوف